التبديل بين الاطعمة ولكن الحكيم يتطلّب ان يغتذي بالطعام الاطيب والانفع والارخص

وما ذكرناهُ هنا قضى العلماء على استنتاجهِ اياماً بل شهوراً واعواماً . قال الاستاذ فويت انهُ لبث يشتغل مع معاونهِ اياماً كثيرة لكي يمكنهُ ان ينقي اللحم من فضولهِ حتى لا يبقى فيهِ الاَّ البتومايين . وكتب رسالة طويلة في نتائج امتحاناتهِ طبعها في ١١٥ صفحة بالقطع الكبير وقال فيها انهُ اقتضب غاية الاقتضاب ولم يذكر الاَّ زبدة امتحاناتهِ وترك التفصيل لئلاَّ يمل القارىء . وهذه الرسالة واحدة من رسائل كثيرة . ونعمتُ مؤلاء العلماء يفوق التصديق فقد بقي الاستاذ هيبرج يمحن مقياس التنفس ست سنوات متوالية ويجد فيهِ خللاً لا يعلم سببهُ الى ان كان احد الايام فسمع واحداً يقول ان الفحم اذا انكشف للهواء خسر بعض ثقلهِ فخطر لهُ حينئذٍ انهُ قد وضع في المقياس بعض المواد الفحميَّة فقال لعلهُ يتصعد شيء عن هذه المواد بسبب الخلل المذكور فكان كما قال وعرف بعد تعب ست سنوات كيف يتقن استعمال هذه الآلة

بواعث الانسان على العمل

لجناب يوحنا افندي دخيل (تابع ما قبلهُ)

النبذة الثانية في الخير

الخير او الواجب هو ذلك الناموس المرسوم في عقولنا بالفطرة اللائق وحدهُ بالانسان ذي الانسانية الحقَّة الذي اذا تعدَّيناهُ عدمنا استحقاقنا وفقدنا حقنا وهو الداعي الوحيد الذي اذا جرينا بموجبهِ لا نحتاج في اعمالنا الى مداراة الخواطر ومراعاة الاشخاص ونستغني عن توقُّع مناسبة الازمنة والاماكن والاحوال

امَّا صورة الخير التي يمتاز بها عن الشر فهي فينا بالفطرة لاننا حين نشاهد ولو لاول مرة امرًا معاكساً لضميرنا نشمئزُّ منهُ وما ذلك الاَّ لانهُ لا يطابق صورة الخير المرسومة فينا . فلو لم تكن هذه الصورة فينا بالفطرة لما ميَّزنا الخير من الشرّ عند بادئ بدء . وبناء عليهِ نستدل ان ليس للتهذيب والعادة من يدٍ في تأصيل هذه الصورة فينا واحد انها من العدم بل نستنتج ان لها اليد الطولى في انماء جرثومتها المتأصلة فينا بالطبع واظهارها اهلاً لقيادتنا في تصرفاتنا الآيلة لافادتنا وافادة الهيئة الاجتماعية

ومما يوضح ان هذه الصورة موجودة فينا بالفطرة انهُ حينما نعلم بوجودنا وبحرّيَّة ارادتنا المختارة نعلم ايضاً ان فينا ناموساً ينبغي ان نعمل بموجبهِ اعمالنا اذا شئنا ان نقوم باهلية حرّيتنا وقوانا

العاقلة . وهذا التعريف المجرد لصورة الخير لا يظهر جليًّا الاَّ حين يجري الضمير اعمالهُ اي حينما تسنح لهُ الفرصة ويشاهد الاعمال التي لا يستطيع الاَّ ان يظهر حكمهُ فيها او حينما نراهُ مطاعًا او معصيًا بأحد اعمال الارادة التي تميل باختيارها إما الى طاعتهِ فيرتاح او الى مخالفتهِ فيتعب . وما ذلك الاَّ لانهُ يظهر حينئذٍ دفعةً واحدةً كالهام باطنٍ متعالٍ بقولهِ الحاسَّة والعاقلة ويحرّك قلبنا ويبير بصيرتنا مما في آنٍ واحد مبيّنًا جليًّا تفضيل الخير على الشرّ . ولبيان ذلك هاكم ما يجري فينا عند مشاهدة عمل مقرون اجراؤهُ بحريّة الارادة ومتعلق بهذا الضمير الادبي مصدر الفضائل ففي بادئ الامر إما اننا نستصعب هذا العمل ونحسبهُ او اننا نخطّئهُ ونستقبحهُ وبعبارة أُخرى اما اننا نجدهُ حسنًا فنحكم بحسنهِ او نراهُ قبيحًا فنحكم بقبحهِ . ففي الاولى من هاتين الحالتين لا ريب اننا نشعر بسرورٍ وانبساط وفي الثانية بغمٍّ وانقباض هذا مما يتعلق بنفس الفعل ثم اذا انتقلنا منهُ الى الفاعل نرى انهُ هو ايضًا يصير لدينا موضوعًا لحكمٍ وشعورٍ مرتبطين بالاولين ارتباطًا شديدًا . وذلك لاننا نعتقد انهُ عمل إما ما يستحق الاستحسان او الاستقباح وبالتالي انهُ اهلٌ للمكافأة او مستحق للعقاب . اي انهُ استوجب ان يكون سعيدًا مغبوطًا او شقيًّا مذمومًا طبقًا لسلوكهِ وتصرفهِ وحسب نتائجها وغايتها . وفي نفس الوقت الذي نحكم فيهِ عليهِ هذا الحكم نشعر وفقًا لدرجة الفضيلة او الرذيلة التي جاء بها إما بان فعلهُ ارضانا واحبباهُ او اغضبنا واشمئززنا منهُ وبالتالي نشعر اما باعتبارهِ واكرامهِ او باحتقارهِ واهانتهِ

وليس بخافٍ ان هذه التأثيرات التي تحصل لنا عند مشاهدة اعمال الغير تحصل لنا ايضًا عند ما نقرأ او نسمع شيئًا عن اعمالهم . واما الاعمال التي تصدر منا نحن فيبدو لنا فيها امران لم نشعر بهما في الاحوال الثلثة السابقة وهما اولاً حكمنا باستحسان العمل او استقباحهِ قبل اجرائهِ وثانيًا الميل المقترن بذلك الحكم اقترانًا دائمًا إما الى اجرائهِ او الى عدم اجرائهِ . فقد اتضح معنا اننا في الاعمال التي نجريها نحن لا نحتاج الى الانتقال من الارادة والقوة الى الانجاز والعمل لكي نعرف ما يجب اجراؤهُ مما لا يجب لان النية وحدها تكون قد شرعت إما بالاستصواب والاستحسان او بالاستباح والاستنكاف . فاذا اجرينا العمل رغمًا عن هذا الاستباح تكون قد سلّمنا باختيارنا وحرّيتنا الى احد دواعي اللذّة او الهوى او النفع الممنوعة التي تسوقنا غالبًا الى الشرّ بعد ان يناوئها الميل الى الخير بحسب ما يرشدهُ الضمير فيتقرّر معنا والحالة هذه ان الضمير اذا تبعنا ارشادهُ في الاعمال التي نعملها يكون كافيًا لبرينا الواجب وغير الواجب

ثم ان الضمير لا ينحصر في الاعمال التي نجريها على هذين الامرين بل يقوّي احساساتنا الادبية ويحيي تاثيرها فنشعر بارتياح في عمل الخير والم في عمل الشرّ وهذا ما يدعى راحة الضمير وتبكيتهُ

وفضلاً عن ذلك يجعلنا نشعر باعتبار انفسنا او احتقارها كما نشعر بالاعتبار او الاحتقار للآخرين الامر الذي يشهد لنا اعظم شهادة بان صورة الخير او الواجب موجودة فينا بالطبع. والحاصل ان الامور التي نستفيدها من الضمير في الاعمال التي نجريها نحن اربعة اثنان منها يحصلان قبل إجراء العمل واثنان بعد اجرائه اما الاثنان الاولان فاولهما حكم الاستحسان او الاستقباح وثانيهما الميل الى الاجراء او الى عدمه واما الاثنان الاخيران فيها اولاً راحة الضمير او تبكيته وثانياً اعتبار انفسنا او احتقارها وكل ذلك بحسب اختيارنا للخير الذي يأمرنا به الضمير او الشر الذي ينهانا عنه

وربَّ معترض يقول لم أرَ بعد في كل ما ذكرته من التحليل الاَّ امورًا مجردة ولم يتضح لي ان للضمير شريعة واضحة مقطوعًا فيها لانك لم تبيّن لنا الاَّ احساسات الاستحسان والاستقباح والاعتبار او الاحتقار وراحة الضمير وتبكيته الامور التي نحكم بها على انفسنا وعلى الآخرين ولم يحصل لنا من كل ذلك الاَّ انك استلفتَّ انتباهنا الى ملاحظات جارية يوميًّا في كل اعمال بني البشر. وبناء عليه اقول ان هذه الامور ليست الاَّ قسمة قُسم فيها لبعض من النفوس الممتازة فاين ذلك الناموس الواجب الثابت الذي لا يباح نقضه لأحدٍ الذي يحكم على الجميع بسلطة لا تقاوم وقوة لا تنقض الذي ينبغي للجميع ان يشعروا به ولو بتفاوت شعورًا غريزيًا. فأجيب ان ذلك الناموس الادبي الواجب يظهر جليًّا من مجموع افعال العقل المتنوعة ومن احوال النفس المختلفة التي سبق تعدادها في التحليل الماضي. كيف لا وكل واحد من هذه الاعمال والاحوال من دون استثناء يقضي بوجود هذا الناموس فينا وجودًا غريزيًّا وينبه كل افكارنا اليه. والاَّ فكيف يمكننا ان ندرك ان الفعل الصادر عن غيرنا يظهر لنا حسنًا او قبيحًا او ان الانسان الواحد الذي لا علاقة لنا معه يكون لدينا بحسب عليه اما معتبرًا او محتقرًا ما لم يكن فينا صورة للخير والشر وقانون نقيس به اعتبارنا واحتقارنا للآخرين ولافعالهم. وعليه ففي جميع الناس ناموس ادبيٌّ يضطرُّون ان يطبّقوا سلوكهم واعمالهم عليه متيقنين ان من يراعيه يستأهل الاعتبار والمكافأة والسعادة ومن يخالفه يستحق الاحتقار والعقاب والشقاء

ومما لا يجب ان تفوتنا ملاحظته فيما يتعلق بالواجب او الخير هو ان صورة الخير والشر هذه تكون دائمًا مقترنة فينا بما يدعى مبدأ الاستحقاق وعدم الاستحقاق. اما حقيقة هذا المبدإ فليست الاَّ اقتناعنا الباطن بصدق حكم الناموس الادبي ومصادقة فؤادنا المدركة عليه. ثم لما كان يقيننا بوجود هذا المبدإ فينا بالطبع لا ينمُّ عن وجود الصورة المميزة الخير عن الشر نرى ان هذا المبدأ يظهر ظهورًا جليًّا كظهور تلك الصورة عند سنوح الفرصة اي عند صدور حكم او فعل جارٍ اي اننا نفتكر اولاً ان فلانًا مثلاً الذي استحسنا او استقبحنا سلوكه يستحق اما مكافأة او عقابًا ثم

نحكم عليهِ بالمكافأة او العقاب اذا كان من واجباتنا او نستوجب الحكم عليهِ بذلك اذا صدر عليهِ الحكم من غيرنا

فنرى مما مرَّ بنا انهُ يوجد علاقة عامَّة ضرورية بين الفضيلة والسعادة وبين الرذيلة والشقاء . وبناء عليهِ اذا قيل لنا اننا مخطئون بحكمنا هذا البديهي وان طبيعتنا خالية من النظام الادبي طبعًا نندهش غاية الاندهاش ونقول على الفور كيف يمكننا ان نسلم انهُ لا يوجد فينا ناموس ادبي بالطبع حال كوننا نرى جليًّا ان هذه المبادئ والصور والاحساسات متأصِّلة في كل الناس بدون استثناء ولو بتفاوت متبقين انها فينا بلا محالة وان مجموعها يؤلف احدى الصفات الاشد اصالة لتمييز النوع البشري عما سواهُ . ومما يؤيد وجودها فينا بالطبع كونهُ ليس في يدنا ان نحدثها او نُعدمها كل الاعدام . الاَّ انهُ لا يخفى على كل عاقل ان ناموس الآداب هذا قد يبيت في زاوية الخمول مستكنًّا في غمور النفوس باستيلاء الاهواء الغطَّة او بغرور الحواس المتهتكة بالشهوات او بلمَّات الجوع والفاقة او بتغافل العقل وتهاونهِ الامور التي من شأنها امانة الضمير . وهذا هو السبب الذي حمل الكثيرين من ذوي العقول التي لا تتمسك الاَّ بالاقيسة التجريبيَّة ان يعتقدوا ان ناموس الواجب هذا ليس الاَّ ثمرة التهذيب ونتيجة التثقيف . واما المحقِّقون من الفلاسفة فلا ينكرون لزوم التهذيب لاحياء الضمير وانماء جرثومتهِ ونقلهِ من حيِّز القوَّة الى حيِّز الفعل وحاشا لمحقِّق ان يقول ان في وسع التهذيب ان يغيِّر الامور الموجودة في الانسان طبعًا التي خلقهُ عليها الباري تعالى . بل من دأب المحقِّقين ان يثبتوا ان التهذيب لا يستطيع الاَّ انماء هذا الناموس واستثارهُ واستخراج الاحساسات والتصورات الموجودة جراثيمها في الانسان طبعًا وايصالها بالاجتهاد الى درجة الكمال الممكنة في هذا العالم . وما مثل التهذيب هذا في انماء الضمير واحيائهِ الاَّ مثل الفلاحة التي لا تستطيع على احداث البزور التي تُزرَع في الارض

وربَّ معترض ينسب احداث الضمير وعمل الخير الى تمدن الشعوب فنجيبهُ ان نسبة التمدن الى الشعوب ليست الاَّ كنسبة التهذيب الى الافراد لان التمدن ليس الاَّ ترقية شعب وفق التهذيب عقول افرادهِ بواسطة الاختبار والمزاولة مدَّة اجيال متواترة كثيرة . وعليهِ يتقرَّر ان الضمير الادبي كسائر القوى العاقلة يحصل على ما قُسِّم لهُ من التهذيب العام

وبناء على كل ما تقدَّم ذكرهُ اختم هذه المقالة بالقول المسلَّم بهِ اجماعًا ان الشعوب على قدر ما يبتعدون عن خشونة طبائعهم وعلى قدر ما يفلُّون تعيهم بتفنُّنهم في الاعمال وعلى قدر ما تذيقهم حذاقتهم بالصناعة من ثمرها الحلال وعلى قدر ما يفتح لهم الشعر دائرة التصوُّرات العقلية وعلى قدر ما تجعلهم الديانة يرفعون ابصارهم نحو خالقهم على قدر ذلك كلهِ يزيدون عدلاً واستقامةً وصحةً لابناء نوعهم